مجلة الرائد

العدد : ٢٠٩ الموافق في محرم ١٤٢٠ هجري ٥ / ١٩٩٩ ميلادي

| الحملة الغربية على يوغسلافيا : أسئلة .. وإشارات تعجب ؟! | بقلم : نوال السباعي |
|---|---|

لأول مرة منذ خمسين عاماً تعيش أوروبا ، ساعات حرجة ، بعد إعلان الأمين العام لحلف شمال الأطلسي ، نبأ إصدار الأوامر اللازمة لشن ضربة جوية ضد المواقع العسكرية للجيش الصربي في مختلف أنحاء الاتحاد اليوغوسلافي ، وذلك بعد فشل مباحثات " رامبوييه " في فرنسا ، والتي كانت قد عقدت بين شهري شباط/ فبراير - وآذار/ مارس ١٩٩٩ في محاولة للتوصل إلى اتفاق بين مختلف الفصائل الممثلة للشعب الكوسوفي ، وبين الرئيس الصربي" ميلوسوفيتش " الذي لم يترك أي مجال للتفاهم ، بلآته الثلاثة : لا لخطة السلام التي تتضمن نشراً لقوات برية تابعة للحلف الأطلسي في المنطقة ، لا للحكم الذاتي ، ولا لوقف عمليات التطهير العرقي ، وانتهج سياسة الأرض المحروقة ، حيث يُقتل الرجال ، ويرحّل الأبرياء والضعفاء الذين يدفعون وحدهم في نهاية المطاف .. الثمن .

***

**لماذا ؟**

* السبب المعلن من قبل حلف شمال الأطلسي ، على لسان أمينه العام ، كان ما سماه " الواجب الأخلاقي " ، ولكنه لا يخفي أن هناك أسباب " استراتيجية وسياسية " ، قال عنها أصحاب الخبرة : إنها تتلخص في عدم قبول حلف شمال الأطلسي " الناتو " بوقوف دولة شيوعية سابقة ، في وجه الإرادة الغربية ، بصرف النظر عن الوضع الإنساني ، الذي يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار ، وفقط لتبرير التدخل الأجنبي في هذه المنطقة أو تلك ، أو عندما ينتقل من نزوح إنساني مؤلم ، إلى صمود عقائدي فعال ، كما حصل في فلسطين ، أو الصومال ، أو البوسنة ذاتها !.

إذاً فلقد كان التدخل العسكري للناتو في يوغوسلافيا ، مستنداً إلى مجموعة من الأهداف " الاستراتيجية " القريبة والبعيدة والمتعلقة :

١. بمصداقية الحلف ومبرر وجوده واستمراره .

٢. بتصفية حسابات متبقية منذ الحرب العالمية الثانية بين غرب أوروبا ودول الشرق .

٣. بالنظام العالمي الجديد الذي يتم اختبار قوته العسكرية ، وأسلحته الفتاكة ، واستراتيجياته السياسية العالمية .

٤. بضمان ولاء الدول العربية والإسلامية ، وإتمام مرحلة احتوائها ، خاصة وأنها في مجملها تظن

أن تدخل الحلف كان لحماية المسلمين نيابة عنهم .

* إلا أن المرء يجد نفسه متسائلاً عن السبب الذي حمل الغرب على السكوت القبيح طوال الأعوام التسعة الماضية ، التي بدأت تظهر فيها مأساة البوسنة ، ثم فرضت نفسها على ضمير العالم ؟؟

أم أن الغرب والحلفاء كانوا متواطئين بصمتهم ذاك الذي شجع الصرب على التمادي في جرائمهم التاريخية التي يريدون أن يثأروا من خلالها لنتائج معركة كانت قد جرت منذ سبعمئة عام ! .

والآن - وفجأة - جاء الغرب لينصب نفسه شرطياً ليحل المشكلة ، وإحلال السلام - كما أعلن - وهو الآن يعاقب كل الشعب اليوغوسلافي عما يفعله المجرمون من الصرب ، من الذين جمعوا إلى التعصب الديني ، الكراهية العرقية ، والتزمت القومي ، والحقد التاريخي ذي البثور القيحية السوداء !! .

لكن هذا التدخل لم يزد المشكلة إلا تعقيداً ، بل لقد فسح المجال للرئيس الصربي للمضي قدماً في خططه الرامية إلى مسح الوجود الألباني الإسلامي تماما من خارطة كوسوفا ، الشيء الذي كان قد حاول اليهود من قبل ، عمله في فلسطين أثناء حرب الـ ٨٤ ، وحاوله الصرب أنفسهم في البوسنة في مطلع التسعينات .

* ولكنني على الرغم من ذلك سأحاول النظر إلى هذه القضية من زاوية الإنصاف الصعبة ، ما استطعت ، فأورد هنا قول الرئيس الأمريكي في خطاب له " **لو سمحنا بأن يتفكك العالم اليوم على أسس عرقية أو دينية على يد مجموعة متعصبة لاضطرب النظام العالمي ، ولعدنا إلى القرن الثالث عشر ، الذي يريد لنا الصرب أن نعود إليه ..** " . فإذا ما أحسنت الظن إلى أبعد حدوده فيمكن القول : إن تدخل حلف شمال الأطلسي لتحقيق مصالحه الاستراتيجية ، قد توافق الآن مع ضرورة وقف المذبحة في كوسوفا ، ووضع حد للكارثة الإنسانية التي يعانيها المسلمون الكوسوفيون !.. ولكن هذا الإنصاف يقودنا إلى سؤال آخر .. لماذا لم يسلح الكوسوفيون ، ولم تُمنح لهم القوة العسكرية الكافية لمواجهة المذبحة ؟! ولماذا لم يسمح للمجاهذين الذين تدفقوا على ألبانيا ، بالمضي قدماً إلى كوسوفا ليدافعوا عن نسائها وأطفالها وأعراضها ودمائها ، بل أعيدوا من حيث أتو ، وسلم بعضهم إلى حكوماتهم التي كانت تلاحقهم بتهم ارتكاب جرائم بشعة باسم الجهاد في بلادهم ، فلما أرادوا الجهاد حقاً ، منعوا منه ، وحظر عليهم !!! . أم أن خوف الغرب مما حدث في أفغانستان ، هو الذي جعله يتهافت للتواطوء في البوسنة - يوم كاد المجاهدون فيها يربحون المعركة - والتدخل في كوسوفا ، وقد خلي ما بين الذئاب والضحية ! .

إننا نريد أن نكون منصفين ، حتى نصل إلى الحقيقة ، ولكن الواقع لا يساعدنا على هذا الإنصاف ،

الواقع الذي يجري تحت سمع وبصر العالم اليوم ، والذي كان قد جرى عشرة أضعافه تحت سمع وبصر العالم قبل أعوام في البوسنة!

**هذا النزيف البشري !!!**

* بعد تدخل القوات الجوية لحلف شمال الأطلسي .. ماذا كانت النتائج ؟!:

١. التفاف جميع فئات الشعب الصربي حول الزعامة السياسية بعد أن كانت قطاعات واسعة منشقة عليها .

٢. إيقاظ الشعور القومي ، الذي كان قد احتوى الشعور الديني ، وتعميق حدة الأحقاد التاريخية ، لدى الشعب الصربي الذي يشعر الآن بأنه وحيد ، ومظلوم ، ومعتدى عليه !.

٣. أصبحت " **الكارثة الإنسانية** " التي تدخّل الناتو للحيلولة دونها ، أصبحت حقيقة على أرض الواقع الذي تحياه ! وبشكل لم يسبق له مثيل إلا أيام الحرب العالمية الثانية ، التي عادت إلى الأذهان الآن حية ، ماثلة أمام الضمائر .

ولا ننسى أن حقوق الإنسان لم تكن على كل لسان قبل نصف قرن، كما لم تكن أوروبا متحدة ، ولم يكن الإعلام بهذه العولمة ، التي تعرض صور شعب يجتث من أرضه يومياً ، ويمحى وجوده وتاريخه ، وتقتلع جذوره ، وتمسح بصماته ، وتنزع من أبنائه بطاقاتهم الشخصية ، وأرقام سياراتهم ، والوثائق التي تثبت عقود زواجهم ، أو ملكيتهم لمنازلهم وأراضيهم .. ثم يقذفون - كما قالوا هم عن أنفسهم كالخنازير - عبر الجبال ، ويدفعون نحو الحدود التي بدأت تنوء بهذا النزيف البشري المستمر ، والذي يعلن من خلال صمته ، كفره بهذا العالم الصامت الواجم ، والذي يشير إلينا من خلال ألمه العميق المرسوم على الوجوه .. يشير إلينا بأصابع الاتهام .. نحن العرب والمسلمين .. الجالسين أمام أجهزة الإعلام ، نتفرج .. نحزن .. نأكل ونشرب ، نسب الصرب تارة ، وحكامنا تارة أخرى .. ونحن جالسون لا نتحرك .. بل أخطر من ذلك لسنا مستعدين لتقديم شيء ، أو بذل شيء .. أو حتى التصدق بشيء !!!

* وبينما يقول " جون سستياغا " أحد مراسلي القناة التلفزيونية الإسبانية الخامسة ، والذي قامت القوات الصربية باختطافه واحتجازه مع المصور المرافق بعد ساعات من تصريحاته التي قال فيها : " إن دماغه تكاد تتوقف عن العمل ، وما عاد يفهم شيئاً وهو يتجول بين اللاجئين ، ويرقب قصف الصرب لبيوتهم من هضبة غير بعيدة لدى الحدود الألبانية الكوسوفية " ويقول مراسل نفس المحطة في مقدونيا " لويس سانايريا " : " هناك شيء واحد يدعو هؤلاء الضحايا المهجرين ، للرضى على الرغم من

الجوع والبرد والقهر .. وهو أنهم يحلمون بقضاء ليلة واحدة بعيداً عن الصرب وجرائمهم " !

**والسؤال الخطير الآن** .. ماذا بعد ؟!! ماذا سيحصل الآن ؟! وماذا ستفعل مقدونيا ، وألبانيا ، وبلغاريا والجبل الأسود ، بهذه الآلاف المؤلفة من المهجرين ؟ الذين يُدفعون إلى الشاحنات وإلى القطارات تحت التهديد والإذلال وأبلغ أنواع سوء المعاملة ، ليطردوا من أرض كان قد تنازع عليها قبل قرن من الآن أجدادهم مع أجداد جلاديهم ، وأين نقف نحن من هذا الذي يحصل ؟ وأين هم العرب والمسلمون ؟ ولماذا هذا الصمت المطبق على المستويين الرسمي والشعبي ؟! وهل ستترك ألبانيا وحدها في هذه المحنة وهي أفقر دولة في أوروبا .. لتتحمل مسؤولية إيواء نصف مليون إنسان ، يصلون إليها بمعدل أربعة آلاف في الساعة !!

* يقول " مندي لوثة " النائب الأوروبي عن إسبانية ، والذي كان مسؤولاً لدى هيئة الإغاثة الخاصة بالأمم المتحدة أيام حرب البوسنة : " إن الذين يعارضون التدخل العسكري ، لا يعرفون الصرب ، ولم يشهدوا ما حدث في البوسنة ، وإن في التاريخ لحظات يُصبح فيها استعمال القوة مشروعاً وضرورياً ، للقضاء على العنف القذر " ويضيف " إن القصف الجو الغربي لم يؤد إلى اندلاع هذه الموجة من اللاجئين ، ولكنها خطة مبيتة كان يعد لها ميلوسوفيتش منذ زمن طويل .. إن الخوف والهلع الذي يصيب الصرب اليوم في بلادهم ، كان يعيشه سكان البلقان جميعاً ، عندما كان الصرب آمنين لا يعترض فيهم أحد على ما كان يحدث " ويقول " لابد من التدخل العسكري المباشر ، بل واحتلال يوغوسلافيا بالكامل " !!

ولا شك أن هذا الكلام عاطفي يتفق مع بعض التحليلات السياسية التي استندت إلى التجربة الميدانية في البوسنة ، ولا يلم بأبعاد المشكلة ، ولا بأبعاد الوجود اليوغوسلافي وتاريخه ، ولا بأبعاد السياسات الغربية وحفاظها على إنسانها ، وحرصها الشديد على عدم توريط كوادر بشرية في هذه الأزمة .

أما وجهة النظر المعارضة فإنها تطالب بوقف كل شيء والعودة إلى المفاوضات متناسية أن ميلوسوفيتش لن يتوقف عن ذبح الألبان حتى يفرغ كوسوفا وغيرها منهم !

وبين هؤلاء وأولئك تبقى مشكلة مليون إنسان دون حل .. ودون بارقة أمل ، اللهم إلا توريدهم إلى سوق العمل الأوروبية التي يأبى أهل البلاد الأصليون العمل فيها ، كتنظيف حظائر الخنازير ، والعناية بأبنية المفاعلات النووية ، وجني بعض المحاصيل الزراعية يدوياً ، كما حصل من قبل بمائتي ألف

بوسني استبعدوا إلى أوروبا ، وانقطعت آمالهم من العودة إلى بلادهم ، أو استعادة شيئ من كرامتهم وإنسانيتهم !!

**الصورة الشعاعية العامة**

* يقول " فيتون سووروي " أحد المفاوضين في " راومبوييه " : " إن قادة الغرب لم يتحركوا إلا بعد أن سمعوا الطلقات الأولى لجيش كوسوفا ، فهم لم يتحركوا لرؤية الدماء ، ولكن لسماع لعلعة الرصاص " !

ويذكرنا هذا الكلام بحادثة سقوط " سبرينتشا " البوسنية ، والتي استطاع المجاهدون البوسنيون الصمود فيها أحد عشر يوماً قبل سقوطها ، الذي كانت قد تهافتت أجهزة الإعلام على إعلانه قبل حدوثه !

* إننا أمام مشكلة خطيرة ومعقدة لا ندري في واقع الأمر من المسؤول عن نشوئها ، وما هي الأدوار الموزعة على كل من أطرافها ، ولكننا نشهد كشفاً بطيئاً للستار الخاص بها ، فالصرب استُدرجوا إلى التمادي في المذبحة ، وجيش تحرير كوسوفا استدرج إلى الظن خيراً بحلف شمال الأطلسي - على أحسن الاحتمالات - ودُفع لأداء دور معين .. لم تُفهم أبعاده حتى الآن ، ولكن قرائن السياسة ، والتاريخ ، جعلتنا نتذكر جيداً مواقف الأكراد العراقيين وبعض الفصائل الصومالية ، والكثير من المجموعات المجاهدة في أفغانستان .. ولا يُعتبر اختراق هذه المجموعات ، أو استدراجها عن بصيرة أو عن حمق ، لتقع في شباك السياسات الغربية إلا هامشاً صغيراً ، مقارنة مع الإرادة الغربية المعلنة ، في بسط سيطرتها ذات القطب الواحد على الأرض ، وتَسنُّمِها مكانة " شرطي البشرية " الذي يستطيع حل المشكلات دون الرجوع إلى أية مؤسسة دولية شرعية كهيئة الأمم المتحدة التي فقدت مصداقيتها ومرجعيتها بسبب هذه الأزمة ، بعد ما كانت قد تصدعت وزلزلت بعد الأزمة العراقية .

* وهذه الهيمنة مرتبطة بصورة مباشرة بقضية النظام الدولي الجديد الذي يبدو وكأنه لا يريد تغيير الخارطة السياسية - الجغرافية الحالية للعالم ، ولكنه يريد حصر العالم في دوائر أمنية ، واقتصادية ، وتجارية ، واستراتيجية ، يحافظ من خلالها على أمن واستقرار الأوضاع السياسية والجغرافية من جهة ، ويطمئن إلى استمرار ازدهار أسواقه الاقتصادية ، وسيطرة هيمنته الكاملة .

* ولا يخفى أن الناتو كان قد اخذ بعين الاعتبار لدى قيامه بهذه الضربة عجز روسيا الكامل اقتصادياً ، ولكنه لم يأخذ بعين الاعتبار مشاعر الشعب الروسي ، وقد تناسى أن الشعوب تغير عادة

مجرى التاريخ مهما بدا أن الذين يخططون ويدبرون ، قد أحكموا التخطيط والتدبير . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، بدا كذلك أن روسيا استطاعت وبعد تسعة أيام من فشل القصف الغربي ليوغسلافيا ، أن تحقق اكبر قدر من الفائدة الاقتصادية والسياسية ، ذلك أن طول مدة القصف دون نتائج ملموسة ، ووقوع الانقسامات ، واندلاع مشكلة اللاجئين ، جعلها مؤهلة للاستمرار في لعب دور الوسيط على الرغم من فشل وساطتها الأولى لوقف القتال .. وليس إرسالها البوارج ، ولعبها بالنار إلا من باب عرض عضلات زعيم عاجز ، أخشى ما يخشاه العالم اليوم .. أن يستبدل على حين غرة بمن يخلفه على مراكز الضغط على الأزرار الحمراء !

* إننا أمام أزمة متنامية ، غير معروفة العواقب ، وكما قال أحد المحللين السياسيين " إن البدء بحرب أمر في غاية الخطر ، والافتقار إلى الشعور بالمسؤولية ، ولكن عدم التخطيط لجميع احتمالاتها ، أو تحمل تبعاتها ، هو أشد خطراً ، وأقل شعوراً بالمسؤولية ".خاصة عندما تتواضع جميع الآراء السياسية على أن القصف الجوي وحده لن يفيد في كبح جماح القتلة المأجورين الذين يعيثون في كوسوفا فساداً ، بأوامر مباشرة - كما تتناقل وسائل الإعلام - من بلغراد ، حيث يمسك ميلوسوفيتش الصرب ، القومي المتعصب ، بزمام الأمور ، ويمضي في سياساته التي أدت إلى تفتيت يوغسلافيا ، وإيقاظ ثارات معارك حدثت منذ قرن ، بينما كان بإمكانه أن يحكم بلاده بالتعايش السلمي ، واحترام جميع الفئات العرقية والدينية والقومية ، بدل أن يعرض الشعوب في صربيا ، وكرواتيا ، والبوسنة ، وكوسوفا ، إلى ويلات الحروب ، وزلزلة السلام والأمن والاستقرار ، وإعدام كل فرصة ممكنة للتعايش المستقبلي بين هذه الفئات جميعاً .

* وأخيراً فإن حلف شمال الأطلسي ما لم يصرح عن الهدف الحقيقي لحملته العسكرية هذه ، ويترك المواربة ، فإن هذه الحملة ستنهج نهج الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حليفتها المؤبدة ، على العراق ، وستستمر المعاناة الإنسانية والقلق العام في أوروبا إلى درجة مخزية . قد تترك الباب مفتوحاً على عشرات الاحتمالات . فلقد كان هدف الحلف المعلن في بداية الأمر ، حمل ميلوسوفيتش على التوقيع على خطة السلام ، ثم صار التقليل من قدرته العسكرية ، لأن هذا يخدم المصالح الأمريكية ، ثم انتقل هذا الهدف فأصبح وقف التطهير العرقي في كوسوفا !! .

هذا عدا عن المائة مليون دولار التي تشكل الكلفة اليومية لهذه الحرب ، بينما بذلت الولايات المتحدة للاجئين مبلغاً لا يتجاوز الخمسين مليون دولار لحل مشكلتهم !!

* ولا يخفى كذلك أن احتمالات التدخل البري ، صعبة ، ومعقدة ، ولكنها تبقى واردة .. خاصة وأن الحملة لم تنقلب إلى حرب بعد ، لأن من شروط الحرب قيامها بين طرفين ، ولم تتجاوز يوغسلافيا حتى الآن مرحلة الحرب الإعلامية ، ومجابهة الحملة الغربية ، بحملة تفريغ كوسوفا من أهلها .

ويجد الحلفاء أنفسهم الآن أمام مرحلة حرجة لا ندري كيف سيخرجون منها ، وما هي الخطة البديلة في حال فشل الحملات الجوية ؟!

**وكيف سيتصرفون في حل مشكلة المهجرين ؟ وهل ستستحيي الدول العربية والإسلامية من التاريخ ومن نفسها وتبادر إلى بذل المساعدات الإنسانية اللائقة بمشكلة تمس المسلمين الذين يتعرضون للإبادة العاشرة في هذه المنطقة من العالم ؟!!**

الشيء الوحيد الذي بدا واضحاً للجميع هو أن مفهوم المجتمع الدولي ، الذي هو الآن على محك الواقع الذي نعيشه ، أصبح يعني مجموعة الدول الغربية التي تملك السلاح ، والتكنولوجيا ، والاقتصاد ، والعقول ، وبالطبع القرار .

* لسنا مع الإجرام الصربي المنظم الحاقد في البلقان ، ونحن نشك في طهارة الهجمة الغربية - غريبة الأهداف ، سرية الاستراتيجيات - على يوغسلافيا ، والتي زادت من معاناة المظلومين ، وجرح المنكوبين ، وبلاء المسلمين ومحنتهم المتفاقمة .

وكما أننا ضد التطهير العرقي والمعاناة الإنسانية ، فنحن ضد أن تستعمل المآسي البشرية مبررات للتدخل هنا وهناك حيث يشاء الغرب أن يفرض هيمنته ، وتجر على البشرية البلاء .. خاصة في تلك البلاد ، والأقاليم ، والأمم التي لا تحترم نفسها ، ولا تحترم عقيدتها ، ولا تقرأ تاريخها .. والتي أمضت أربعة أيام تحتفل بالطبل والزمر والسقوط ، بعيد الأضحى المبارك .. بينما جزء من جسدها كال يقدّم قرباناً على مذابح الصرب العقيدية .. وليس في هذه الأمة من يستصرخ الضمائر ، أو يهز النّوام .. فلا نامت أعين الجبناء !!